﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣﴾ [النّحل: 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

خطابُ النّبيِّ ﷺ بما يستوجبُ إيناسَه وإيلافَه

لمّا عدَّدَ الله تعالى في الآيات السّابقة جناياتِ المُشركين، في الكُفرِ والكَذبِ وسوءِ المَثَلِ وسوءِ المآلِ، وكان هذا ممّا يَأسَفُ له النّبيُّ ﷺ، جاءَت هذه الآيةُ لتتوعَّدَ الكفّارَ بالعذاب الأليم يومَ القيامة، مع تسليَةِ النّبيّ بما يُؤنِسُه ويُثبِّتُ قلبَه، ويعصِمُه مِن قومِه، ويُعينُه عليهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَزَيَّنَ﴾: (زين): يدُلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[1]، والزَّينُ نَقيضُ الشَّين، وزانَهُ وزَيَّنَهُ بمعنًى، وهو تصييرُ الشَّيء زَيْنًا؛ أي: حَسَنًا[2]، والتَّزْيينُ: تَصييرُ الشَّيءِ زَيْنًا، فهو تَحسينُ الشَّيءِ المُحتاجِ إلى التَّحسين، وإزالَةُ ما يَعتَريهِ مِنَ القُبحِ أو التَّشويهِ؛ ولِذَلِكَ سُمِّيَ الحَلّاقُ مُزَيِّنًا[3]، والزّينةُ: جامعٌ لكُلِّ ما يَتزيّنُ به النّاسُ، وما يَحسُنُ في أنظارِهِم مِن طَرائِفِ الدُّنيا، كالحُلِيِّ والجَواهِرِ[4]، والمقصودُ بالتَّزيين في الآية: تَحسينُ ما لَيسَ بِحَسَنٍ بَعْضِه أو كلِّه، والمُرادُ: زَيَّنَ لَهم الشَّيطانُ أعمالَهم الشَّنيعةَ، فأوهَمَهم بوَسوَسته أنَّها حَسَنَةٌ.

2) ﴿وَلِيُّهُمُ﴾: الوَلِيّ: مَصدَرُه الوَلي، وهو القُرب، وأصلُه المَطَرُ الَّذي يأتي بعدَ المَطَر، يُقالُ: وُلِيتِ الأرضُ وليًا، والاسمُ: الوَلِيُّ، يُقالُ: تباعد بعدَ ولْيٍ؛ أي: قُربٍ، وجلس ممّا يليني؛ أي: يقاربني[5]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (زين).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 179.
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، (زين).
(5) الخليل، العين: (ولي).

وتقولُ: على الولاء؛ أي: الشَّيء بَعدَ الشَّيء، فمعنى الوَليِّ: الشَّيءُ القريبُ التّالي دونَ فاصلٍ مادِّيٍّ أو زمانيٍّ، فهو ليس التِصاقًا، وجميعُ الاستعمالات تدورُ حولَ هذا المعنى، يُقال: أولى؛ أي: أحَقُّ، وذلك لقُربِه[1]، سواء أكان القربُ مَعنويًّا أم مادّيًّا، والوَليُّ والمَوْلَى يُستعملان في تولِّي الأمرِ، ولا يتولَّى الأمرَ إلّا مَنْ كان قريبًا، مِن حيثُ الدِّينُ، أوِ النَّسَبُ، أوِ الصَّداقةُ، أو غيرُها، والوليُّ على وزنِ فعيلٍ بمعنى فاعل، والمقصودُ بالوَليّ في الآية: هو الشَّيطانُ الرَّجيمُ، وليُّ المُشركينَ اليومَ، يُزيِّنُ لهُم أعمالَهم، كما كانَ وليَّ مَن قَبلَهُم[2].

3) ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: اليومُ هو الواحِدُ مِنَ الأيّام، ثُمَّ استعاروه في الأمرِ العَظيم، فيَقولونَ: نِعمَ فُلانٌ في اليَومِ إذا نَزَلَ[3]، واليَومُ أيضًا: مِقدارٌ مِنَ الزَّمانِ، أوَّلُهُ طُلوعُ الشَّمسِ إلى غُروبِها[4]، أو مِن طُلوعِ الفَجرِ الصّادِقِ إلى غُروبِ الشَّمسِ[5]، وتُطلَقُ الأيّامُ على ما يَقَعُ فيها مِنَ الأحداثِ العَظيمَةِ، ومِن مَعاني اليوم: الوَقتُ، والزَّمَنُ، والحِينُ، سَواء كان نَهارًا أو لَيلًا، تقولُ: خَبَّأتُ المالَ لِهذا اليَومِ؛ أي: لِهذا الوَقتِ، والجَمعُ: أيّامٌ، واليَومُ في الآية: مُستَعمَلٌ في زَمانٍ مَعهودٍ بعَهدِ الحُضورِ؛ أي: فهو وليُّهُمُ الآنَ، وهو كنايَةٌ عنِ استِمرارِ وِلايَتِهِ لهُم إلى زَمَنِ المُتَكلِّمِ مُطلَقًا بدونِ قَصدٍ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنَ الحقُّ سبحانَه في الآية أنَّ هذا الصَّنيعَ الَّذي صَدَرَ مِن قريش قد حَدَثَ مثلُه مِنَ الأُمم السّالفةِ في حَقِّ أنبيائِهم، فقال مُسَلِّيًا رسولَه على ما كان ينالُه مِنَ الغَمِّ بسبب جهالاتِهم: واللهِ يا مُحمَّدُ

مَـــن كـــانَ الشَّيطانُ وليَّهُ فهـو خـالـدٌ في العذاب مثلُه

(1) ابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 46.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 195.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يوم).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، والراغب، المفردات: (يوم).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (يوم).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 195.

ﷺ لقد أرسَلْنا رُسُلًا إلى أُمَمٍ ماضيةٍ مِن قَبلِك بمثلِ ما أرسَلناكَ به؛ مِنَ الدُّعاءِ إلى توحيدِ اللّهِ، وإخلاصِ العبادةِ له وطاعتِه، فحَسَّنَ الشَّيطانُ لهم ما كانوا يَعمَلونَه؛ مِن كُفرٍ وشِركٍ باللّهِ، وتكذيبٍ للرُّسُلِ؛ فالشّيطانُ في يومِ القيامةِ هو وليُّ المُشركينَ الّذين كذَّبوا الرُّسلَ، وزيَّنَ لهم سوءَ أعمالِهم، وهو ناصرُهم، ليس لهم ناصرٌ غيرُه، ولا قدرةَ له على نصرِهم، ولا يملِكُ خلاصَهم ولا نفعَهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقِعُ جملةِ القَسَمِ ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ﴾ ممّا قبلَها:

تسليَةُ الرّسولِ ﷺ وتثبيتُه

قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ استئنافٌ مُتضمِّنٌ لأصلِ العِلّةِ الّتي جعلَتهم يكفرون ويَفترون، وهو إنكارُهم للرّسالة، ولذا جاء إثباتُه بالقَسَم؛ أي: هُم أنكروا الرّسالةَ والوحيَ، ولكنْ – واللّهِ – لستَ بدعًا في ذلك، فما زلنا نُرسلُ الرّسلَ لإقامةِ الحُجَجِ، وإعذارِ النّاسِ من أنفسِهم.

ولذلك فُصِلَتْ هذه الجملةُ عمّا قبلَها؛ لكونها في معنى التّعليل لما قبلَها؛ أي: القَسَمُ على إرسال الرّسُلِ علّتُه أفعالُهم الإجراميّةُ الّتي مَرَّتْ، لأنّه لولا كفرُهم بهذا الأصل ما أجرموا[2].

ويصِحُّ أن يكونَ الاستئنافُ ابتدائيًّا، على معنى الشُّروع في تسليَة النّبيّ ﷺ وتعزيتِه وتثبيتِه، كأنّه بعدَ الاستطراد السّابقِ في تعديد قبائحِهم وألوانِ كفرِهم، تفرَّغَ النّظمُ وآلَ لمخاطبة النّبيِّ ﷺ بأنّه على عهدِ وعادةِ الرُّسلِ قبلَه، فلا يَحزَنْ لما مَرَّ، ولا ينقبِضْ لتلك الأحوالِ العسيرةِ، والطّبائعِ الشّاذّةِ[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 268، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 580، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 231، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 443.

(2) صافي، الجدول: 14/ 344.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 193.

بلاغةُ حَشدِ المؤكِّداتِ في جواب القَسَم:

إيرادُ المؤكّداتِ في جـواب القَسَم فيـه تعـظيـمٌ لمضمون الجوابِ

جوابُ القَسَم في قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾، اقترنَ بعِدَّة مؤكّدات: (اللّام، وقد التّحقيقيَّة، وصيغة الماضي المُحقَّقَة في الإرسال، وإسناد الإرسال إلى نون التّعظيم والإجلال)؛ لتثبيته وعدمِ التّشكيكِ فيه.

بلاغةُ القَسَم بالتّاء:

تـعـظـيـمُ شـأنِ الـرُّسُـل والرِّسالات

أوثِرَ القَسَمُ بالتّاء دونَ الباء لوجود فرقٍ بينهما، فالباءُ تدخلُ على الاسم الظّاهر والضّمير، وكذلك الواو، أمّا التّاءُ فلا تدخلُ إلّا على لفظ الجلالة، كما في قوله: ﴿تَٱللَّهِ﴾، ولأنّ التّاءَ يكونُ القَسَمُ بها في الأحوال المُستَغربةِ، والأُمورِ العجيبة، والسّياقاتِ الّتي يُنكرُها بعضُ السّامعين، أو يُرتابُ فيها، أو تحتاجُ إلى تثبيتٍ للمُتلقّي المُصَدِّق لئلّا يرتابَ؛ ذلك أنّ التّاءَ في القَسَم تكونُ فيما يُتعَجَّبُ منه غالبًا؛ لأنّها لمّا كانَت نادرةً في أدوات القَسَم، جُعِلَتْ للنّادرِ مِنَ المعاني، والنّادرُ مِنَ المعاني يُتعجَّبُ منه، والسّياقُ هنا لتقريرٍ منكورٍ عند المُخاطَبين؛ وهو الرّسالة، فهو لأمرٍ مُستغرَبٍ منهم مُستبعَد، والقرآنُ الكريم يَتَعَجَّبُ مِن حالهم في إنكار ذلك، وهو أمرٌ مُمكِنٌ وواقعٌ، ولأجل هذا التّعجُّبِ مِنَ الطّرفين على تبايُنِه فيهما، جاءَ القَسَمُ بالتّاء.

وأيضًا: القَسَمُ بالتّاء يدُلُّ على أنّ المُقسَمَ عليه، وهو إرسالُ الرّسلِ، أمرٌ عجيبٌ في ذاته، لا لعدم إمكانِه أو استبعادِه، بل لِعِظَمِه وبُعدِ شأنِه، وجلالِه في الوقوع والأثر، فجميعُ هذه المعاني يُصحِّحُها ويُرجّحُها القَسَمُ بالتّاء دونَ غيرِها، بل هو كذلك نُكتةُ إجراءِ الكلام - أصلًا - على طريقة القسَم.

ولا يخفى ما في أسلوب القَسَم، وإيقاعِه بحرف التّاء مِنَ الإشارة إلى غضبِ الله عليهم؛ توبيخًا لهم، وتعجيبًا واستهجانًا لإنكارِهم، لأنّه لولا عِنَتُهم وعنادُهم لَما احتاجوا للقَسَم.

دلالةُ إسناد الإرسالِ إلى نون العَظَمة:

تعظيمٌ للوحي وتنويهٌ بخَطَرِه

أُسنِدَ الإرسالُ إلى نون التّعظيم والإجلال، تناسُقًا وتناغُمًا مع القَسَم بالتّاء الّذي يكونُ في الأمور العجيبةِ، وتناسبًا مع المُؤكِّدات الّتي في جوابه، كأنّه بإسناد الإرسالِ إلى نون العَظَمة والاقتدار، يُخفِّفُ من حِدَّةِ الاستغرابِ والاستعجابِ من هذا الأمر العظيم، وكأنّه يقولُ: إذا كان هذا الأمرُ - وهو إرسالُ الرّسل - أمرًا عجيبًا في ذاته - وهو كذلك - ، فليس مُستبعَدًا أو نادرًا، فضلًا عن أن يكونَ مستحيلًا؛ لأنّ الإرسالَ قد حصل بعَظَمة وقُدرةِ الإله الجليل الأعلى، فلا عجيبَ عندَه ولا غريب.

بلاغةُ الالتفات:

عُلوُّ شأنِ إرسالِ الرُّسلِ، والاعتناءُ بشأن البشر

في الآية التفاتٌ مِنَ الغَيبة ﴿تَٱللَّهِ﴾ إلى التَّكلُّم في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾، وذلك للدّلالة على عُلوّ شأنِ إرسالِ الرّسلِ، والاعتناءِ بشأن البشر.

بلاغةُ سياقِ الكلامِ على أسلوب الخطابِ:

نزولُ القرآن جبرٌ لخاطر النّبيّ ﷺ

جاء الأسلوبُ على طريقة الخِطاب للنّبيّ ﷺ في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ تَفرُّغًا لتسليته، والتّودُّدِ إليه، والتَّلَطُّفِ معه؛ لئلّا يحزنَ أو ييأسَ، وتوطينًا لنفسه الشّريفة ألّا تَجزَع أو تتألَّمَ أو تستغربَ، إذا صادَفَتْ إنكارًا، أو لاقَتْ إجرامًا، كأنّه ﷺ يقولُ له: إذا كان إرسالُكَ إليهم ليس بدَعًا مِنَ الرّسل، فإنّ تكذيبَهم لكَ ليس بدَعًا من أقوام الرّسلِ قبلَكَ، فإنّهم كذلك كذّبوا وافترَوا، فلا تَكترِثْ[1].

دلالةُ حرفِ الانتهاء:

تحديدُ مآلِ الإرسال والجهةِ المُستهدَفة

التّعبيرُ بحرف الانتهاء ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ﴾؛ للدّلالة على مآلِ هذا الإرسالِ، وتعيينِ الجهةِ المُستهدَفةِ منه، وهي الأممُ والجماعاتُ العظيمةُ الكاثرةُ من قبلُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 194.

دلالةُ تنكير ﴿أُمَمٍ﴾:

إفـادةُ العُـموم والإبهام

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (أرسلنا إلى الأمم) بل نكَّرَ، فقال: ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾؛ لإفادة العُموم والإبهام، لعدمِ تعلُّقِ الغَرَضِ بتعيينِها والكشفِ عنها.

دلالةُ جمعِ ﴿أُمَمٍ﴾:

اخـتـلافُ الأُمـمِ وتَعَدُّدُ تنوّعِها

جَمعُ لفظِ ﴿أُمَمٍ﴾ مِن قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾؛ يدلُّ على اختلاف هذه الأُمم وتَعدُّدِها في ألوانِها وجنسِها وأزمانِها وطبائعِها ومَذاهبِها، إلى آخرِ ألوان التّعدُّدِ والكَثرةِ.

دلالةُ مَجيء ﴿مِّن﴾ قبلَ الظّرفِ:

إرسـالُ الرّسـلِ أمـرٌ شـائِـعٌ في الأمم، لا يحتاجُ إلى دليلٍ

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (أرسلنا إلى أممٍ قبلك)، بل قال: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾؛ للتّنبيه على إرادة القبليّةِ القريبةِ السّابقةِ على زمنِه ﷺ؛ لأنّه حديثُ عَهدٍ بها، ويَسمَعُ قومُه عن أخبارها، فيسْهُلُ عليهم تحرّي أخبارِ الرُّسل والأنبياء فيها؛ ليستوثقوا منها، فيكون ذريعةً لزَوال إنكارِهم، وحصولِ إيمانِهم، ولو قِيلَ في هذا السّياق: (أرسلنا إلى أممٍ قبلَك) دونَ (مِنْ)؛ لاستغرقَ الزّمانَ القَبليَّ كُلَّه، دونَ تحديدٍ لبدايتِه الّتي يُبتَغَى البحثُ مِن عندها، و﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾: ابتدائيّةٌ[1].

مَوقِعُ جملة: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ممّا قبلَها:

الـرُّسـلُ سفـراءُ اللـهِ إلى خَلقِه بكلّ خيرٍ

جملةُ: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ معطوفةٌ على جملة جوابِ القسم[2]: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾، والفاءُ في معنى السّببيّة؛ لترتيب التّزيينِ على الإرسال، وهو تسبيبٌ مَجازيٌّ؛ لأنّ التّزيينَ حاصلٌ مِن قبل الإرسال، فليس مُترتِّبًا عنه، وأيضًا: ليس الإرسالُ سببًا في التّزيين، ولكن لمّا كان إرسالُ الرُّسلِ سببًا في إظهار التّزيين وكَشفِه، والدّلالةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 189.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 194.

عليه وتسميَةِ أعمالِهم به؛ كان كأنّه بمَنزِلةِ السّببِ الّذي أنتَجَه، ولذا رتَّبَه عليه.

دلالةُ إسنادِ التّزيين إلى حرف الاختصاص:

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (فزيّن الشّيطانُ أعمالَهم)، ولم يقُلْ: (فزيّن الشّيطانُ أعمالَهم لهم)، بل أسندَ إلى حرف الاختصاص المُشتمِل على ضميرِهم، وقَدَّمَ الجارَّ والمُجرورَ؛ لإظهار الغرضِ الأصيلِ، وهو الحديثُ عن الأمم الّتي اتّبعَت تزيينَ الشّيطان لها مِن أعمال الضّلال؛ ولئلّا يُتَوَهَّمَ أنّ المُرادَ بتزيين الشّيطان هو عمومُ عملِه بالتّزيين، بل خصوصُ تزيينِه الكائنِ لهم، وللتّنبيه بلفظ: ﴿لَهُمُ﴾ على أنّهم اتّبعوهُ في تزيينِه، ولو قيلَ: (زيّنَ أعمالَهم) لما أفاد ذلك المعنى، وللتّنبيه على أنّ الشّيطانَ حين يُزيِّنُ للنّاس شيئًا، فإنّما يقصدُهُم بذواتِهم ويتسلَّطُ على أبدانِهم وخواطرِهم، ولا يكتفي بتزيين الباطلِ فحسب، بل يَؤُزُّ أنفسَ النّاسِ إليه أزًّا، وهذه فائدةُ ﴿لَهُمُ﴾.

النّاسُ فرائسُ الشّيطان، يصطادُهُم بحِيَلِه

بلاغةُ إظهارِ الفاعل:

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (فزُيِّن لهم أعمالَهم) بإضمار الفاعلِ، بل أظهرَ الفاعلَ، وعَبَّرَ عنه باسم (الشّيطان)، فقال: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، وفي ذلك نُكتَتان:

لفظُ الشّيطانِ يومِئُ إلى الاستيحاش منه، وتخوينه في تزيينه

الأولى: الإشارةُ إلى المُقابلة بينَه وبين فاعل الإرسالِ، الكائنِ ضميرُه في لفظ ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾، وهو اللّهُ ﷻ، أو المقابلةُ بينَ الشّيطان ومفعولِ الإرسال، وهمُ الرّسلُ؛ أي: أرسلنا الرُّسلَ، كأنّه يقولُ: الإرسالُ مِنَ اللّه والتّزيينُ مِنَ الشّيطان، فإرسالُ الرُّسلِ حقيقةٌ وحَقٌّ، وتزيينُ الشّيطانِ تلبيسٌ وباطلٌ، وبهذا التّقدير يتمُّ معنى المُقابلةِ المَقصودة.

الثّانية: أنّ اصطفاءَ لفظِ الشّيطانِ يومِئُ إلى ضَرورة الاستيحاشِ منه، والنّفورِ مِن تزيينه؛ لأنّه شيطانٌ، فاللّفظُ نفسُه مَنبوذٌ ومُشتَمِلٌ

على معنى الغَرابةِ والنّفورِ، فاسمُ الشّيطانِ المَذكورِ يستلزمُ التّحذيرَ مِن تزيينِه؛ لأنّ الشّيطانَ قبيحٌ في اسمِه ومُسمّاه، فحَلاوةُ التّزيينِ الّذي تَصْدُرُ عنه، هي حلاوةٌ ظاهرةٌ فقط، وهي قُبحٌ وسوءٌ في حقيقتها، طُلِيَت بالتّلبيس والزَّيف.

دلالةُ التّعبيرِ بالأعمال دونَ الأفعال:

الأعمالُ مَقصودةٌ، والأفعالُ قد تجري على غير قَصْدٍ

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (فزيّن لهم الشيطان أفعالهم)، بل عَبَّرَ بالأعمال، فقال: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ لأنّ العملَ أخصُّ مِنَ الفعلِ، فالفعلُ عامٌّ في الأحداثِ بقصدٍ أو مِن غير قَصدٍ، والعمَلُ هو فعلٌ مَقصودٌ[1]، فدَلَّ التّعبيرُ بالأعمال، على أنّهم فعلوها عن قَصدٍ واختيارٍ تامّين، ولا يَخفى ما فيه مِن إقامة الحُجّةِ عليهم بأقصرِ بيان.

مَوقِعُ جملة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ ممّا قبلَه:

مَن يتولَّ الشّيطانَ يَخْسَرْ

جملةُ: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ﴾، والفاءُ لتَفريعِ الولاية عنِ التّزيين[2]، والغَرضُ مِنَ التّفريع: الإخبارُ عن أنّهم اتّبعوه في تزيينِه وصَدَّقوه، حتّى دخلوا في وِلايته، وفي التّعبير بقوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ دلالةٌ على الاستهزاء بالكفّار الّذين رَضوا بولاية الشّيطانِ واطمأنّوا إليها؛ لأنّه لا يملِكُ نُصرتَهم يومَ القيامة؛ بل يَتبرّأُ منهم.

عَوْدُ الضّمير ومرجِعُه في ﴿وَلِيُّهُمُ﴾:

ما جرى على السّابقين يجري على اللّاحقين، فسُنّةُ اللهِ لا تتبدَّلُ

الضّميرُ الجَمعيُّ في قوله: ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ يعودُ إلى الأُمم، أو أمثالِهم مِنَ المُخاطَبين بالتّنزيل، ويكون الكلامُ على حَذف مضافٍ؛ أي: وليُّ أمثالِهم، وأمثالُهم هم مشركو قريش[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (عمل - صنع).

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 308.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 412.

دلالةُ الظّرفِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

المَقصودُ بالظّرف في قوله: ﴿وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ زمنُ الدّنيا؛ لأنّ الدّنيا كلَّها حاضرٌ بالنّسبة للآخرة؛ أي: فهو وليُّهم ما دامتِ الدُّنيا، ويومَ القيامةِ يَتَبرَّأُ منهم.

الدّنيا كلُّها حاضرٌ بالنّسبة للآخِرة

أو المرادُ بعضُ زمنِ الدّنيا، وهو على وجهين؛ **الأوّل:** أن يُرادَ البَعضُ الّذي مضى، وهو الّذي وقَعَ فيه التّزيينُ للأُمم الماضية مِنَ الشّيطان، والتّعبيرُ عنه باليوم الّذي هو الوقتُ الحاضرُ، حكايةٌ للحال الماضية، **الثّاني:** أن يُرادَ البعضُ الحاضرُ، وهو وقتُ نزولِ الآية، أو المرادُ: (وليُّهم يومَ القيامة)، والتّعبيرُ عمّا هو مُستقبلٌ بالظّرف الحاضر؛ لكونِه مُتَحَقِّقَ الوقوعِ، وثابتًا في عِلم اللّه، فشابَه الوقتَ الحاضرَ[1].

بلاغةُ المَجاز:

الشّيطانُ يتخلّى عن أتباعِه

على اعتبار تفسير ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ بزمن التّزيينِ الماضي، أو زمنِ القيامة المُستقبلِ، فهو مجازٌ مُرسَلٌ استُعير فيه الحضورُ الخارجيُّ للحُضور الذّهنيّ[2]، علاقتُه: اعتبارُ ما كان، أو اعتبارُ ما سيكون، أو استعارةٌ تصريحيّةٌ، بتشبيه صورةِ الماضي في حال تحقُّقِها، بالزّمن الحاضر في جريانِهِ وحُدوثِه، وتشبيهِ صورةِ المُستقبلِ في ضمانة وقوعِه، بالوقت الحاضرِ في مُلابَستِه ومُعاينتِه.

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

للعَهدِ الحضوريِّ، أو العهدِ الذّهنيِّ

(ال) في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ على اعتبار أنّه مُدّةُ الدُّنيا، أو زَمنُ التّزيين - وهو الأظهر - للعَهدِ الحُضوريِّ[3]؛ أي: فهو وليُّهم الآن، وهو كنايةٌ عنِ استمرار ولايتِهِ لهُم إلى زمن المُتكلِّم مُطلَقًا بدون قَصدٍ، لما يَدُلُّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 412.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 412.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 404.

عليه لفظُه مِنَ الوقت الّذي مِن طلوع الفجر إلى غروب الشّمس، وهو مَنصوبٌ على الظّرفيَّةِ للزّمان الحاضرِ، وأصلُه: اليومُ الحاضِرُ، وهو اليومُ الّذي أنتَ فيه[1]، وعلى تقدير أنّه يومُ القيامة، فاللّام للعَهد الذّهنيِّ[2].

دلالةُ إسناد الوِلايةِ إلى الظّرف في تقرير الوعيدِ:

ولايةُ الشّيطانِ مُنقطِعةٌ زائلةٌ، وولايـــةُ اللـهِ دائمةٌ باقيَةٌ

إسنادُ الوِلايةِ إلى الظّرف الحاضر: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ تمثيلٌ للمُخاطَبين بمُدّةِ حياتِهم المَحدودة، وهو كنايةٌ عن لازمِه مِنَ الوعيد الشّديدِ، كأنّه يقولُ لهم: فهو وليُّهُمُ اليومَ فقط مُدّةَ حياتِهم، فإذا قَضَوا فلا وليَّ لهُم ولا ناصِرَ، فاختاروا لأنفسِكُم ولايَةَ الشّيطانِ المُنقطعةَ الزّائلةَ، أو ولايَةَ اللّهِ الدّائمةَ الباقيةَ[3].

بلاغةُ نفي الشّيءِ بإيجابه:

تحقيرُ المُجرمِ بتقرير ما يُضادُّ استحقاقه في الجَزاء

على احتمال أنّ المُرادَ بـ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ يومُ القيامة، في قوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ فيكون التّعبيرُ بالولاية حينَئِذٍ مِن باب التّهكُّم بهم؛ لأنّ الشّيطانَ ليس وليًّا لأحدٍ يومَ القيامة، ولا قَرينًا له، بل هو في قَعر جهنّمَ، يتبرّأُ مِن كُلِّ ضحاياه وجنودِه الّذين أغواهم، ويكون المرادُ مِن إثبات الولاية له نفيَها، كأنّه قِيلَ: فهو وليُّهُمُ اليومَ إنْ كانَ لهم أولياءُ - أصلًا - ولا وليَّ لهم ولا نصيرَ ولا قرينَ، وهو مِن باب نفي الشّيء بإيجابِه وإثباتِه، وهو فنٌّ في البلاغة بديعٌ[4]، وغرضُه هنا: التّشَفّي والشّماتَةُ بهم، والتّنَدُّرُ عليهم.

مَوقِعُ جملة: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ﴾ ممّا قبلَها:

الجـزاءُ مهما تـأخَّـرَ فهو مَحتومٌ

جملةُ: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عطفٌ بالجزاء والعقوبة على مضمون ما قبلَها[5] مِن اتّباع التّزيينِ ودخولِهم في ولاية الشّيطانِ، فهو إردافٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 195.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 404.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 404.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 123.
(5) صافي، الجدول: 14/ 345.

بعاقبة أفعالِهم، وخَتمٌ بنهاية العظائمِ الّتي اقترفوها، وخَلَّفوا آثارَها بعدَهم، وهي مُلاقاةُ العذابِ الأليمِ، والاقتحامُ فيه خلودٌ أبديٌّ لا خَلاصَ منه.

نُكتةُ تقديمِ الخبر على المبتدأ:

لكلّ أمّةٍ قِسطٌ مِنَ العذاب مَعلومٌ

قَدَّمَ الجارَّ والمَجرورَ الخَبريَّ على المبتدأ في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ولم يقُلْ: (عذابٌ أليم لهم)، وذلك لنُكتَتَين؛ الأولى: حفاظًا على الفاصلة ألّا تنخرمَ، فيختلَّ إيقاعُها وجَرسُها الصّوتيُّ، وكمالُها اللّفظيُّ، الثّانية: لإفادة الاختصاص، زيادةً في التّهويل والوعيد؛ أي: هذا العذاب أُعِدَّ خصوصًا لهم، كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: 24].

دلالةُ تنكيرِ لفظِ العذاب:

أهوالُ يومِ القيامة لا يعلمُها إلّا الله

نُكِّرَ لفظُ ﴿عَذَابٌ﴾ في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لتهويلِه وتعظيمِ أمرِه، حيثُ يمحو كلَّ ذكرياتِ النّعيمِ والتّرفِ الّتي عاشَها الكفّارُ في الدّنيا.

بلاغةُ إجراءِ الفاصِلة بطريق الوَصفيّة:

على قدرِ ما كانوا يُؤمّلون بغيرِ حَقٍّ، فهُم يتألّمون ويُعذَّبون بِحَقٍّ

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (ولهم عذاب) بدون وصف، بل أجرى الفاصلةَ على طريقة الوصفِ، فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ زيادةً في تعيين العذابِ وتخصيصِ نوعِه، وتحديدِ ماهيَّتِه، وأيضًا: زيادةً في ذَمِّه بالوصف؛ لأنّ العقوبةَ كلَّما كانت أذَمَّ كانت أبلغَ وأوجعَ، كأنّه قِيلَ: عقوبةٌ يَسوءُ المُجرمين عذابُها.

نُكتةُ اختيارِ وصفِ ﴿أَلِيمٌ﴾ للعذاب دونَ غيرِه:

لم يلتزموا التّكاليفَ، فعوقِبوا بألم النّارِ وعذابِها

وَصْفُ ﴿أَلِيمٌ﴾ للعذاب هو أصلُ الأوصاف وأتمُّها، ولذا فسياقُه هنا أتمُّ من (عظيم)، و(مُهين)، و(شديد)، ونحو ذلك؛ لأنّ العذابَ هنا عقوبةٌ على أصل الاعتقادِ في الإلهيّات بما نسبوه إلى الله، وفي النّبوّات بما قرَّرَه لهم في: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾، وفي السّمعيّات برجمِهم بالغيب

﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، فاستحقّوا أن يُخاطَبوا بأصل أوصافِ العذابِ، وهو لفظُ: ﴿أَلِيمٌ﴾؛ لأنّ الشّيءَ إذا كان مُؤلِمًا كان مُهينًا، ولاسيّما إذا استمرَّ، وإذا كان مُؤلِمًا كان عظيمًا على صاحبه أن يستمرَّ فيه، وإذا كان مُؤلِمًا كان شديدًا لا رِقّة ولا بَحْبوحَة معه، فالوصفُ بالإيلام جامعٌ لتلك الأوصاف جميعًا، وهو أصلُها ومنشأُ حصولِها.

بلاغةُ جناس إيهامِ الاشتقاق:

خيرُ الكلامِ ما تآلفَت تراكيبُه، ووَفَّت معانيه المقاصِدَ

بينَ ألفاظ: ﴿وَلِيُّهُمُ﴾، ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾، ﴿أَلِيمٌ﴾ جناسُ إطلاقٍ، وجناسُ الإطلاقِ: أن يكونَ بينَ الكلمتين مشابهةٌ لفظيّةٌ، وهي ما يُشبِهُ الاشتقاقَ وليس كذلك، فلا يرجعانِ إلى أصلٍ واحدٍ، مع حصول المغايرةِ بينَ رُكني التّجنيس في الحروفِ والحركاتِ، ولذا يُسَمّى جناسَ إيهامِ الاشتقاقِ، أو جناسَ المُقاربة أو المُشابهةِ أو المُغايرةِ، وهو من مُحسّناتِ الفصاحةِ اللّفظيّةِ؛ لكونه واردًا على غير تَكلُّفٍ وتَعَسُّفٍ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(زيّنَ) و(سَوّلَ) و(طَوّع):

التّزيينُ يدُلُّ على إظهارِ زينةٍ منَ الذّات أو إضفاءِ زينةٍ على الذّات

زيّن: أصل (زين) يدُلُّ على حُسنِ الشّيءِ أو تَحسِينِه، ومنه: تزيينُ الشّيء؛ أي: إضفاءُ الزّينةِ عليه بتحليتِه وتحسينِه، ويقعُ على وجهين؛ تحليَةُ الشّيءِ بإظهار حَلاوَتِه وحُسنِه؛ أي: الكَشفُ عن زِينةٍ غيرِ ظاهرةٍ فيه، لكنّها قائمةٌ به، والثّاني: تحليَةُ الشّيء وتحسينُه بما ليسَ فيه، كتحسينِ القبيح، وتحبيبِ الأذى، وتزكيةِ الشَّين، كتزيين الشّيطان للشَّرِّ والشّهَوات[2].

سوَّل: يدُلُّ على استرخاءٍ في شيءٍ، ومنه: تسويلُ النّفسِ لصاحبِها أمرًا، والتّسويلُ: التّزيينُ والتّحبيبُ والتّحسينُ، فكأنّ المَرءَ

(1) إنعام فوّال، المعجم المفصّل في علوم البلاغة، ص: 480.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زين).

يسترخي لَمطالبِ نفسِه؛ بتزيينِها وتحسينِها، فيُجيبُها إلى ما سألَتهُ إيّاها، فالتّسويلُ: هو تزيينٌ وتحسينٌ لِما سَألَتهُ النّفسُ ورَغِبَتهُ، فيصِحّ على ذلك أن يكونَ أصلُ السّولِ مهموزًا مِنَ السُّؤْلِ والسُّؤالِ، ثمّ خُفِّفَتْ همزتُه في لفظ التّسويل، وكأنّ إبقاءَ الهمزةِ في السُّؤْلِ - وهو الحاجةُ الّتي تَحرِصُ عليها النّفسُ فتسألُ تحقيقَها - دالٌّ على ثِقَلِ الرّغبةِ قبلَ سؤالِها، وانضغاطِ النّفس بها، فإذا أُرخِيَ لها بتحسينِ المطلوبِ وتزيينِه، وإعطائِها سؤلَها، استَرخَتِ النّفسُ وخَفَّ حِملُها مِن ضغطِ رغبتِها بتحقيقِها واقترافِها، فأُزيلَتْ الهمزةُ تخفيفًا للّفظِ؛ ليُطابِقَ خِفَّةَ المعنى الّذي اشتمَلَ عليه[1].

طوَّع: (طوع) أصلٌ يدلُّ على لِيونَةٍ وانقيادٍ، وهو ضِدُّ الكَره، ومِنهُ الطّواعِيَة والطّاعَة: الانقيادُ للأمر، وهي ضِدّ العصيان، ومِنه قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ [المائدة: 30]؛ أي: انقادَتْ له، ولانَتْ فيما أرادَه مِن قتلِ أخيه، فقتَلَ ونفسُه مُختارةٌ غيرُ كارِهةٍ ولا مُتَرَدِّدةٍ[2].

والفرقُ الدّقيقُ بينَ التّسويلِ والطّواعيةِ والتّزيين: أنّ التّسويلَ فيه معنى التّزيينِ والتّحبيبِ، فيقعُ فيما تَتَذُّ به النّفسُ وتُحِبُّه أو تُلِحُّ فيه، وأمّا الطَّوعُ فلا يَلزَمُ أن يكونَ في المَرغوبِ المَحبوب، ولا عن إلحاحٍ، والطّوعُ دالٌّ على معنى الاختيارِ وعدمِ الكراهيَةِ، وليس هذا المعنى مُضمَّنًا في التّسويل، وأمّا التّزيينُ فيَخلو عن معنى الحِرص بسؤال الشّيءِ وتدبيرِه الّذي في التّسويل، وتخلو مادّتُه عن معنى الطّوعِ والاختيارِ الّذي في الطّواعية، ويخلُصُ لمعنى استحسانِ الشّيءِ، لزينةٍ ظاهرةٍ تعلَّقَتْ به، سواء كانت خارجيّةً كزينة القبيح، أو ذاتيّةً كزينة الحَسَن، ولذا يرتبطُ التّزيينُ بإظهارِ زينةِ الشّيءِ أو إظهارِ زينةٍ له.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سول).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طوع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»